تعريف الذات كشكل من أشكال بناء الديمقراطية: التجربة السورية

تأليف: نعمت حافظ البرزنجي - جامعة كورنيل إثيكا, نيويورك

ترجمة: هاجر محمد (دمشق سوريا) **و مونيك كاردينال** (كندا)

هذه المقالة نشرت باللغة الإنجليزية تحت عنوان:

Self-Identity as a Form of Democratization:
The Syrian Experience:

in *Democratization and Women's Grassroots Movements*

تعريف الذات كشكل من أشكال بناء الديمقراطية: التجربة السورية

هذا المقال هو ترجمة لفصل ألفته الدكتورة نعمت حافظ البرزنجي ونشر في كتاب (الحركات النسائية ذات الأصول الذاتية وتحقيق الديموقراطية) . يحتوي المقال على بحث تاريخي وسجلات حقلية عن بحث قد تم بطريقة المشاركة الفعالة مع إحدى المجموعات النسائية التي تعتمد التنظيم الذاتي في سوريا (من الآن فصاعدا ندعو هذه المجموعة بمجموعة هناء (اسم مستعار)). تحلل المؤلفة المقولة التي تقوم بها هذه المجموعة لتحقيق الديموقراطية للوصول إلى تحديد الهوية الذاتية للمرأة المسلمة. المحور الفكري لهذا التحليل هو التعلم الإسلامي السامي وعلاقته بالمبادئ الأساسية في الإسلام وفيما يخص العدالة بين الجنسين.

المقدمة:

هناك عوامل عديدة أثرت على الأولويات أو الأساسيات في مدى معرفة المرأة المسلمة للإسلام وقدرتها على إثبات هويتها ووجودها في المجتمع السوري ذو الأغلبية المسلمة . إن النظرة للإسلام وللمرأة المسلمة داخل أو خارج المجتمع السوري تؤثر على عملية صنع القرار لدى هذه المجموعة حتى لو كانت مجموعة هناء تعتمد على التعلم غير الرسمي وعلى النشاطات الموجهة للصالح العام في المجتمع .قرارات المجموعة تندرج بين الغايات المحددة للمجموعة وبين التحديد الذاتي للهوية الإسلامية لدى كل عضوة في هذه المجموعة .حيث تتأثر عملية تفسير الإسلام لدى هذه المجموعة بشكل شعوري أو لاشعوري بكل ما يدور حولها وحول المجتمع السوري محليا وعالميا . رغم أن الدستور السوري لا يحدد الإسلام كدين رسمي في سوريا فانه من الصعب حدوث مداولة لأي موضوع في سوريا أو في الشرق الأوسط والدول الإسلامية بصورة عامة دون إدخال تمثيل شامل للمفاهيم والشعائر الدينية الإسلامية ملوثا بالصورة السياسية السائدة ، ومع ذلك فلا توجد دراسات لمحاولة إيجاد مفهوم إسلامي وأسس تربوية لتعليم الأساسيات في صنع القرار من قبل الفرد المسلم ذو الشخصية الإسلامية المستقلة بحيث يكون عنصرا فعالا في الحياة المدنية والدينية المتعلقة بالفرد والمجتمع .

وبما أنني باحثة أستخدم طريقة المشاركة الفعالة ومختصة بالتربية فان عملي مع هذه المجموعة وتسجيلي لنشاطاتها قد حفز على حدوث مناقشات وتغييرات في المنظور لأجل فهم هذه الحركة بين نساء مسلمات وسعيها نحو الديموقراطية ضمن المفهوم الإسلامي . وقد شعرت بعض أعضاء هذه المجموعة بحاجة للمزيد من القدرة على وضع استراتيجية للتعلم النابع من الذات فدعتني للمشركة في حلقاتها الدراسية.

إذا أخذنا بعين الاعتبار المبدأ الأساسي في الإسلام (تهذيب النفس لإثبات الهوية الذاتية ، على أنها ليست أقل ولا أعلى من أية هوية إنسانية أخرى) . فان مجموعة هناء تعتبر المسؤولية الاستقلالية محورا مركزيا لعملية التربية الدينية والسياسية . كما تفسر هذه المجموعة هذا المبدأ على أنه المعرفة المباشرة للإسلام من المصادر الأولية للإسلام وتنظر إلى المعرفة الحقيقية لهذه المصادر (القرآن والحديث) على أنها الوسيلة الوحيدة للتحرر. والمقصود بالتحرر هو تخليص النفس من المخططات المتناقضة التي تضع تمايز بين التقليد والانطلاق بدون حدود (برزنجي ، 1998). كما تركز المجموعة على فهم الحياة من خلال القرآن وتعتمد أعضاء هذه المجموعة على استراتيجية قراءة القرآن والعمل به وتطبيقه في الأمور اليومية ، ولكن عملية اتخاذ القرار في هذه المجموعة لا تزال محصورة ضمن التفسيرات التقليدية لنصوص القرآن التي ركز فيها المفسرون على مفهوم معين لدور الفرد في البنية السياسية والدينية للعائلة والمجتمع .

إن عملي مع هذه المجموعة غايته تيسير الأخذ بهذا المبدأ الأساسي للهوية الذاتية كخطوة أساسية في متابعة طريق إثبات الهوية الإسلامية ضمن مفهوم العدالة بين الجنسين .

إن مبدأ الإسلام في تقويم النفس الذاتي يطالب كلا من الجنسين أن يستمع إلى القرآن (القرآن معناه باللغة العربية القراءة وتفهم المعنى). وهدف القرآن هو النفس البشرية حتى تنتقل إلى كائن أفضل وفعالية أكبر (كما يقترح رحمان، 1980) .ولكي نحقق هدف الإنسان في الوجود بكونه خليفة الله فانه من الضروري أن تتمتع المسلمة بأقل ما يمكن من معرفة لنظام الإسلام ونهجه (برزنجي، 1996: 92-91) . ذلك أنه قبل أن تتبع المرأة المسلمة مبدأ الإسلام الأول "لا اله إلا الله "يجب أن يكون لديها القدرة للوصول إلى التعلم السامي للإسلام كوسيلة لاثبات وجودها .وهذا لايعني توفر التعليم العالي الديني أو العلماني ، بل المقصود المعرفة والتواصل المباشر مع القرآن التي تتطلب إيجاد علاقة عقلانية مع الإسلام لتطوير الخلق الإسلامي الفعال .ولكون الإسلام يؤكد على الهوية الذاتية ضمن المفهوم القرآني فانه يركز على الاستقلالية الذاتية في قراءة وتطبيق القران ضمن معانيه الشاملة . إن الاستقلالية الذاتية تتطلب الوعي الكامل في قبول أو رفض الإسلام كنظام متكامل للتصديق ، وبالتالي قبول أو رفض مسؤولية حمل الأمانة (الخلافة) **كمتطلب أولي** ليكون الإنسان مسلما واعيا .

إن تسهيل عملية تقدم هذه المجموعة نحو هدف الهوية الذاتية وابتعادها عن الاعتماد على ما هو سائد من التفسيرات (الذكورية) لمصادر الإسلام الأولية يتطلب توضيح مبدأ حمل الأمانة (سورة البقرة : آية 30) عن طريق التعلم الإسلامي السامي .
إن المسلمة أو أي فرد مسلم لا يمكن أن تتفهم أصول التربية الإسلامية لمبدأ حمل الأمانة دون أن تكون قادرة على اختيار الإسلام بمفهومه الواسع بشكل واع ومقصود وأن تفهم هذا الخيار وتقوم بتطبيقه باستقلالية ذاتية متكاملة .
على سبيل المثال إن المسلمة التي تردد الآيات في الصلاة يوميا دون أن تتمكن من ربطها وأهميتها في تحديد مفهوم القرآن لعلاقة الإنسان مع الله ومع الآخرين ، لا يمكن أن تحقق هويتها الإسلامية .
فالإسلام بالوكالة أو الأخلاق الجماعية (الممثلة بالممارسات الاجتماعية السائدة) لا تحل محل الخلق النابع من الذات . إن الخلق بالوكالة والعلوية التي يدعيها الرجل على أنه وكيل على عفة وخلق المرأة هي تطبيقات مضللة . فالأخلاق الجماعية أو الخلق الذي يفرضه المجتمع باسم الصالح العام هي أعراف مركزية للحكم السياسي ، ولكنها لا تنفي أولوية الخلق الواعي كنوع من الحكم الذاتي . المضمون العام للقرآن والحديث يحدد أن الصالح العام يتقدم على الحقوق الفردية عندما يكون هناك تضارب . ولكن المرأة المسلمة الواعية للمبادئ الإسلامية بإمكانها أن تدافع عن حقوقها الذاتية ضد التفسيرات الجماعية الظالمة.
إن تحليلي للتعلم الذاتي وحكم النفس ضمن مجموعة الآنسة هناء التي تقدم نموذجا عن تطبيق الديموقراطية من قبل نساء سّوريات يهدّفن أن يؤكّدن فعالية المرأة المسلمة. رغم أن المجموعة نفسها لربمالاتسمي عملها بالديموقراطية أو كحركة للحصول على المساواة بين الجنسين، فان هذه الحركة قد توصلت وتزعمت اشتراك ثقافي ومدني فعّال على الرغم من القيود التّاريخية والثّقافية الموجودة في سوريا، كما هو الحال أيضا في المجتمعات العربية المسلمة الأخرى .إن هدفي ليس مقارنة هذه المجموعة من النساء السوريات مع حركات أخرى داخل أو خارج سوريا،بل تغيير المفهوم الشائع الذي يرى خطأ عدم ظهور النّساء المسلمات على أنه مؤشر للتّبعية الكاملة أو الظلم الشاسع.إن الأدب'الغربي الذي يهتمّ بالديمقراطية،وبالمجتمع السوري و بالنساء العربيات المسلمات السوريات قد غابت عنه مثل هذه الأنواع من المجموعات لأنها لا ترتبط بمركز القوة. على أية حال، فانه بالإمكان تغيير مجرى مناقشة الموضوع باستعمال مفهومين أساسيين ذوي صلة وثيقة لفهم الديناميكية التربوية الإسلامية على أنها عملية ديموقراطية : أولا، حرية التعبير للفرد التي تمتدّ إلى تحمل المسؤولية في رفض أي قواعد صنعها الإنسان إذا كانت تتضارب مع التوجيهات القرآنية أو لا توجد أدلة لها وبعدما يختار الفرد بوعي ويفهم الإسلام؛ ثانيا:إن الحكم من قبل الناس يتم من خلال التشاور المتبادل الذي يتم

تصميّمه وقراره بالإجماع.رغم أنه نادرا ما يعترف في الأدب الغربي الذي يتحدث عن الدّيمقراطية وعن حرية اتخاذ القرار ،فان وجود حكم ذاتي ثقافي وروحي إسلامي،وأمثلة عن إتخاذ قرارات وأحكام شورية يمثّلان شكلا من أشكال العملية الدّيموقراطية (الحبري، 1992). هذا الشكل من الديموقراطية يطالب بإيجاد شخصية ذاتية واعية ومستقلة سياسيا، وبالاعتراف بهذه الشّخصية كشرط أساسي للعدالة الاجتماعية. الحكم بالمبادئ الأخلاقية الإسلامية تمنح الأولوية إلى كل فرد كوصي للتوجيه القرآني. أي أن المسلمة لاتكون مسلمة بوعي ما لم يكن لديها الإختيار لأن تقبل أو ترفض " التّوجيه القدسي " و بوعي كامل، حتى تصبح مسؤولة فقط نحو الله (برزنجي، 1997). إن جماعة تتألف من مثل هؤلاء الأفراد قد تحول البث بأي قضية إلى مجلس منتخب من بين أفرادها ، هذا المجلس يعتمد في قراراته على التشاور المتبادل والإجماع. القيادة في مثل هذا المجلس الحاكم تعطى إلى شخص واسع الإطّلاع ويمتاز بشخصية عادلة.إن سعة الاطلاع والشخصية العادلة تقدران بمقدار الفائدة التي يمنحها هذا الفرد للأعضاء الآخرين في الجماعة.

إن تطبيق الهوية الذاتية من أجل فهم الذّات وتحقيق التقويم الذاتي هو أقرب إلى الإطار الإسلامي للعدالة بين الجنسين مما هو قائم في الفرضيات الكامنة خلف مفهوم الديموقراطية في الغرب. المفهوم الإسلامي للعدل يبدأ بإزالة الخصوصية (بين الذّكور والإناث) في المسؤولية الدّينية والمدنية، باعتبار أن كل البشر أعطوا حق الوصاية المستقلة. فالهوية الذاتية لإدراك النفس تستوجب بداية التعلم السامي الإسلامي للوصول إلى قوة العلم والمعرفة كوسيلة للوصول إلى المشاركة الفعالة .

مشكلة هوية النّساء السّوريات :

الفريد في حركة النساء السّوريات هو محاولتها أن تستعيد قبضتها على المعرفة الإسلامية كوسيلة للوصول إلى المشاركة والدّيمقراطية. باعتبار أن السّياق الحاضر للدولة المؤسسة على مفهوم الوطنية والعلاقات الأجنبية الإقليمية لا يهتم بهذا الشكل من المشاركة فان المجموعات النسائية، مثل هذه المجموعة التي يركز عليها هذا المقال، قد أصبحت متناسية للتّغييرات السّياسية , لذلك تبقى تلك النساء إلى حد كبير غافلة عن تأثيرات المفاهيم الغربية والسياسات الأجنبية على فهم دور المرأة في تحقيق قوانين الديموقراطية في المجتمع بشكل كبير. على الرغم من محاولاتهن في إدراك الذّات، فان المشكلة الأساسية لهذه المجموعة تظهر في عدم إدراك أعضائها أن هويتهن كانت ومازالت مبنية لهن وفق قرارات سياسة محلية ووطنية ودولية . ولذلك إن ، "الهوية الذاتية، " مهما كان تعريفها من قبل الفرد أو المجتمع هي لب تحليلي للمفاهيم المعاصرة للدّيمقراطيةِ ولوجهات النظر لدى هذه المجموعة من النساء السّوريات.

بشكل عام ما زال ينظر إلى النِساء على أنهن يمثلن القضايا العائلية بالوكالة وما زالت النِساء المسلمات تمثلن على أنهن حافظاتِ للتّراثِ، ولسن مساهمات في التثقيف وفي صنع التراث. قضايا المرأة تُتشكّلَ بشكل دولي بالتعاون مع، أو على الرغم من، صانعي السّياسةِ الدّاخلية. هذه السياسة التوكيلية على شؤون المرأة تلاحظ أكثر بين المجتمعات المسلمة، عنها في مجتمعات العالمِ المتطور، لأن المسلمين يعتمدون كثيرا على السّوق الدّوليةِ للأفكارمثل اعتمادهم على السوق الدولية للبضائع. إذ لم يستفد المسلمون وخصوصا النساء من الفرصة في توسيّع وموازنة مفهومهم للعلاقةِ الدّائمةِ بين المعرفةِ الحديثةِ، والقوة الاقتصادية والسياسية في شكلهما المُعاصر. مثل هذا الفهم يَفترضُ أنْ يُساعدَ هم في َتحمل مسئوليتهن كمواطنات متعلمات في تَقييمِ ومُسَاهَمَةِ مفاهيم تطوير هويتهن الذاتية ومن الضروري التأكيد على أن مثل هذا الفهم لا تكون له قيمة دون أن تدرك تلك النساء هويتهن الذاتية والفرضية الأساسية الإسلامية للوصاية. لكن فقدان مثل هذا الفهم ، على أية حال،لا يعني الحاجة إلى دخلاء ، ولا التعامل مع هذه المجتمعات كمستعمرات " همجية " أو" مجموعات مضطهدة من الناس والتي من الضروري تحضيّرها أو تحريرها " (

انظر, مثلا مقولة إدوارد سعيد في الاستشراق ,1979, ومناقشتها من قبل شوهات وستيم 1994)

.

فعلى العكس قد أعطيت النساء السوريات، مثل أكثر النّساء في الشرق الأوسط وبقية الدول العربية و المسلمة والدول النامية، خلال المئتي سنة الماضية، قد أعطيت هويات متعددة .حيث كانت النساء عبر التاريخ وأحيانا بشكل متبادل تسمين (حريم، محمديات، مسلمات، أهل الشرق الأدنى، من سوريا الكبيرة (التي تضم سوريا، الأردن، ، ولبنان)، عربيات سوريات (مقابل عربي أردني، على سبيل المثال، ابتداء بالنزاع الإسرائيلي- العربي (اثر الإحتلال الإسرائيلي للأراض الفلسطينية في 1948)، شرق أوسطيات (ابتداء بتدخل الولايات المتحدة في المنطقة لكي تحمي إستراتيجيات النفط والدخل، التي تمتدّ من مصر إلى باكستان، ومن تركيا إلى اليمن)، عرب(ابتداء بتشكيل وحدة الجمهورية العربية المتّحدة بين سوريا ومصر في 1958)، ومسلمات (ابتداء بتعاون الحكومة السّورية مع الحكومة الإيرانية بعد ثورة1978 .

و الذي يجعل هذا التجوال في التّعريف هاما وذا مغزى في فهم ومعرفة دور النّساء بالمقارنة مع دور الرجال في المنطقة وفي سوريا هو بدء اتساع الاهتمام بتعليم النساء بشكل مباشر مع قدوم المبشّرين الأوروبيين وتدخّل المستعمر. هذا التّدخّل تلاه خطابات ومناقشات وطنية عن تربية المرأة كما تتمثل في الأفكار التي ظهرت في مهاترات وكتابات المثقفين الذّكور" (أحمد، 1992:134). هذه الكتابات قد تلت الاقتصاد الصّناعي الأوروبي في أوائل القرن التاسع عشر والبحث عن الأسواق والأيدي العاملة الرخيصة من كل الأصناف والمستويات في " الشرق الأدنى " (حمّام،1977). إن التركيز على مثل هذه الهويات هام لفهم النساء السوريات بالمقارنة مع النساء الأخريات في المنطقة هو توسط سوريا منذ القدم كمفترق طرق في المنطقة سواء في الاتجاهات الإقتصادية والدينية، والثقافية، و السياسية، حيث كانت ملتقى الصراع بين الأوروبيين / الصّليبين من جهة ومسلمي الشرق الأوسط من جهة أخرى. على سبيل المثال في مكتبة جامعة كورنيل ،يوجد فقط أربعة عشر سجل حول النّساء من أصل 1258 سجل عن سوريا، أقدمها كتب حررت من قبل مبشّرين اثنين من الذّكور الأمريكيين. عناوين هذه الكتابات هي "نساء العرب "(جيسوب، 1874) ونساء الشّرق (هوتون، 1877) وهي ما زالت تستعمل بشكل متكرر كمعلومات موثوقة في المصادر المعاصرة حول النّساء السّوريات. ما يركز عليه في مثل هذه الكتابات هو حاجة النساء السوريات للتحرر والديموقراطية، وكثيرا ما تم الافتراض أن الظلم الذي تعانيه النساء السّوريات سيتم حله بالتدخّل الخارجي من قبل الإنقاذ المسيحي ومن قبل مجموعات الدفاع عن الحقوق الإنسانية.

والنظرات الحالية الأكثر شيوعا، مثل(نظرية دينس كانديوتي) التي تؤكّد "مركزية الدّولة في أي تحليل للنّساء في العالم المسلم (كول، 1992:23). ومع أنني لا أشارك في هذا المنظور، فإنني أقبل بوجود بعض العلاقات التي رسمتها كانديوتي إشارة إلى مفهوم الدولة -الأمة. حيث إنها توضّح كيف أن" التركيز على مفهوم تطور النساء قد مارس ضغطا على الحكومات الوطنية للاعتراف بدور النّساء في محاربة الفقر و الأميّة، ونسبة الولادات العالية'وكيف أن هذا الاعتراف غالبا ما أثار الحاجة إلى الدعم من عناصر يمينية في المجتمع، مثل الجيش، لمقابلة معارضة' المجموعات الدّينية ' (كانديوتي، 1992:253). وكيف لنا أن نتساءل عن وجود تشويشات أكثر مما هو قائم حاليا؟ إذا أسلمنا أن المجموعات الدينية يفترض أن تكون أيضا "عناصر يمينية " وباعتبار أن أغلبية النّساء المسلمات " متدينات " بأشكال مختلفة، فهل يوجد هناك أكثر فوضى وارتباك في هوية المرأة المسلمة؟

لم تفشل أبدا فعالية النساء السوريات في كفاحها للحفاظ والدفاع عن القيم الثقافية والحضارية التي تدعو إلى إبقاء قضايا البيت والعائلة بعيدة عن المحيط العام والتي قد تكون العامل المساعد، بغير قصد، في تدعيم إصرار المجتمع على هامشية النساء ،ودور التبعية للمرأة. بدأت تظهر مؤخرا فقط معالم هذه الفعالية، و بشكل رئيسي في حقول التّراث الأدبي والشّعبي ((انظر،مثلا، ترجمان، 1994) . بالإضافة إلى ذلك، إن شرعية وعدم شرعية هذه الفعالية لم تكن حادة مثلما هي

عليه خلال هذا النّصف الأخير من القرن العشرين، باعتبار أن الارتباط الذاتي بمساواة الجنسين بدأ بالظهور أكثر. كما أن السياسة الدّاخلية، التي جعلت سوريا في حالة اضطراب منذ استقلالها من فرنسا 1947 وحتى الوقت الحاضر، والحكم الصارم لحزب البعث ، قد جعلت نظرة النساء السوريات لمفهوم الدّيمقراطية يتأرجح تبعا لما يراه القادة والمتحالفين معهم. ولكن بعد المحاولة الفاشلة في الوحدة مع مصر في بداية 1960، وبعد احتلال هضبة الجولان السّورية خلال حرب الـ1967 ، بدأت مجموعات من النساء السوريات تنتظم وتبحث عن الحل بشكل جماعي، مستقلة سياسيا عن صيغة السياسة" الوطنية" . تركز هذه الدّراسة على إحدى هذه المجموعات .فقد شاركت عدد من النساء باتحادات العمال والحرف التي كانت قائمة وكان عند بعضهن صالا تهن الأدبية (انظر، مثلا، الخالد، قيد النشر). ولكن إلى الآن ،يوجد فقط منظمة نساء واحدة ممثلة للنساء السوريات في الإجتماعات الوطنية والعالمية ,والتي تأسّست في بداية عام 1970 . وقد بدأت بعض النساء الأكاديميات تدلي بآرائها ولكن الوقت مازال مبكرّا لتقييّم تأثيرها (الخالد، قيد النشر).

كيف يعمل الإسلام، إذن،وكيف يلعب دورا في مسرح القضايا المعاصرة للدّيمقراطية والقضايا الوطنية والدولية

مثل العلاقة مع الولايات المتحدة؟ لماذا نحتاج أن نذكر السياسة الأجنبية للولايات المتحدة، على سبيل المثال ، في سياق الحديث عن حركات النّساء السّوريات ؟ إنّ تاريخ المنطقة قد بني على فهم أو عدم فهم دور الإسلام في موازنة أو تعديل أي عمل اجتماعي أو سياسي ,حتى عندما تكون القضايا قيد المناقشة تهتم بالقوانين الشّخصية (مثل زواج، طلاق، أو ميراث) للسّكان المسيحيين، الذين يمثلون حوالي خمسة عشر15 بالمائة من مجموع السكان .وباعتبار إنه من الصعب إيجاد مناقشة لأي قضية في سوريا لا يضمن خلالها تمثيل معمم وموحد لسكانها وشروط معيشتهم، فان الأسس التّصورية الفكزية والتّربوية الإسلامية للهوية الذاتية الفردية وما يتبعها من السلوك المدني في اتخاذ القرار لها أهمية عظمى.

محادثات مع مجموعة الآنسة هناء :

في كانون الثاني/يناير 1995, حضرت واحدة من حلقات الدّراسة الأسبوعية للمجموعة. كانت الموجهة والقائدة الغير رسمية ، الآنسة هناء ، قد قدمت محاضرتها العامة الأولى حول دور النّساء في القرآن في المكتبة الوطنية السّورية في العاصمة، دمشق. كانت تلك مناسبة نادرة للنّساء أن تطرح مثل هذه القضايا في منتدى عامّ بارز، مما جعل عمل هذه المجموعة أكثر أهمية لفهم الحركات المحلية الشعبية وسعيها نحوالدمقراطية. إنه من الضروري الإسداء بأنّ رفع حظر التجول على التجمعات والأنشطه العامة في سّوريا ، خصوصا حلقات الدراسة في الجوامع، قد تم منذ فترة وجيزة حينها. هذا التّغيير في سياسة الحكومة السورية قد تزامن مع تفكك الاتحاد السوفيتي، ومع التّحالف السّوري مع الولايات المتحدة والدول الغربية الأخرى في حرب الخليج، و مع دخول الحكومة السورية في " عملية السلام في الشرق الأوسط" ومع زيارة كلنتون رئيس الولايات المتحدة في أكتوبر 1994.

عرفت الآنسة هناء وفعالياتها المبكّرة لأكثر من ثلاثين سنة الماضية، قبل مجيئي إلى الولايات المتحدة كطالبة دراسات عليا بعد الحرب الإسرائيلية العربية في عام 1967. كانت مجموعتها تتألف حينذاك من خمسة إلى عشرة نساء اللواتي ضقن من ادعاءات الدّيموقراطية والحداثة والحكم العلماني، خصوصا الطّرق التي تناقش بها قضايا النساء المسلمات والتي تغلبها مراغاة المثقّفين ورجال الدّين. إن هدف مجموعة الآنسة هناء هو أن تقوم عضواتها بدراساتهن الخاصة للمصادر الأولية للإسلام وأن تقمن بتطبيقها في حياتهن اليومية. و قد بدأت العضوات بقراءة فصول أو مقاطع معيّنة من القرآن، والاجتماع مرة كل أسبوع، لمناقشة ما فهمن من قراءاتهن. وعندها بدأن يتوصلن إلى إجماع بخصوص فهمهن للمبادئ الأساسية، وبدأن ضمنياً بوضع برنامج متكامل لنشاطهن، الذي اصبح في النهاية كالبذرة بين المجموعات المشابهة

الأخرى المتفرعه عن هذه المجموعه، وبهدّف التعلم الذاتي للإسلام لدى النساء العربيات المسلمات. وقد بدا لي عند أول مشاركة في حلقات الدراسة هذه، أن الأغلبية اعتمدت على تفسيرات الآنسة هناء .ولكن مع مرور الزمن ,أدركت بأنّه كانت للعضوات مساهماتهن الخاصة، وباعتبار يفوق لديهن الاحترام التّقليدي للموجهات فقد كن يستمعن بيقظة حتى تنهي الموجهة من تقديمها . ومع أن الأقلية المشاركة في المجموعة لديها درجة جامعية فإنهن جميعا كن قادرات على الربط بين التفاسير التاريخية للنّصوص الأولية و الحاجات المعاصرة للنّساء المسلمات وعائلاتهن ولتوجيّه أعمالهن بشكل فعال. إن التّغيير المستمر في العضوية وفي الحضور جعل عمل هذه المجموعة يظهر وكأنه غير مؤثّر في الفترة الأولى .والآن ,وبعد نمو المجموعة إلى بعض المئات من العضوات الفعالات، ذوات المستويات المختلفة من التعليم، مازال هدف المجموعة الرّئيسي هو ممارسة ما تعلّمن مباشرة.

بالإضافة إلى حلقة الدراسة الأسبوعية، تكرّس العضوات يوما واحدا أسبوعيا لزيارة ومساعدة النساء المسنات اللواتي يعشن في الدار الحكومية لرعاية المسنين. تساعد العضوات تلك النّساء في الاستحمام، وتغيير الشراشف والمناشف ، وتنظيف غرفهن، مستعملة أدوات تشتريها المجموعة. وتكرّس يوما آخرا لجمع أي مساعدات ممكنة من العائلات المتوسطة الدخل، من أموال، وطعام،و لباس، وتوزيع ما يجمع إلى العائلات المحتاجة.هذه الفعاليات ليست أعمال خيرية تقام مرة واحدة . إنما تتضمن أعمال وخطط مدروسة بشكل جيد لإجراء الاتصالات الغير رسمية، مع الأقرباء أو الأصدقاء.كمتطوعات، تشكّلن علاقات عمل وثيقة مع النّساء المتّبرّعات والعائلات التي تقدم لها المعونة على أساس المساعدة لبناء استقلالية تلك النساء. إنّ الهدف الرّئيسي هو التعلم الذاتي لبعض المهارات في إدارة العائلة وتربّية النفس والآخرين في الإسلام. و الغرض هو أن يستفيد المجتمع، ولكن في ذات الوقت يتم العمل على تغيير النساء لمفاهيمها بشكل تدريجي حول دورهن في العائلة والمحيط العائلي المباشر ومع الأقارب الحالية، و الجماعات المجاورة، وفي المجتمع بشكل عام، وذلك بتغيير المفهوم المحدود ألا وهو رعاية المنزل، إلى كون المرأة لها دور فعال للتغيير في المجتمع.

تقوم المجموعة أيضا باجتماعا إضافيا مرة كل شهر. إن طّبيعة وفحوى المناقشة في هذا الاجتماع الشّهري تختلف عن فحوى حلقة الدّراسة الأسبوعية في الجامع. يسخر الاجتماع الشّهري نحو تقييم الفعاليات والقضايا التي واجهت المجموعة بالأضافةالى التخطّيط للمناسبات الخاصّة (زواج، ولادة، موت، عطل، نشاطات) بعضوات المجموعة أو نشاطات خارج المجموعة. يمكن أن نصف الإجتماع الشّهري وكأنه اجتماع مجلس تنفيذي، ولكن النساء تغير أدوارها القيادية بشكل غير رسمي. فهن تتحملهن مسؤولية نفع الآخرين بما تنفع أنفسها ،ولكن تلك النّسوة لا تعين نفسها، ولا تعيّن بشكل رسمي كرئيسات لّجان. فهناك تفاهم قائم بين أفراد المجموعة على أن كل عضوة تقوم ببعض من المهام، ويمكنها أن تستفيد من قدرات النّساء الأخريات عندما تكون متواجدة ولربما تطلب اشتراكهن في حالة تقاعسهن عن التطوّع. في إحدى هذه الاجتماعات الشّهرية في عام 1995, اجتمعت حوالي خمس وعشرون امرأة من اللواتي اخترن أنفسهن في بيت أحد العضوات. في هذا الاجتماع الخاصّ، قدمت عملي مع النّساء المسلمات في أمريكا الشمالية ، واقترحت على كل عضوة أن تقدم طبيعة دورها بالمجموعة .بدأت الآنسة هناء بالتحدّث عن تغير مفهومها لتفسير المصادر الإسلامية عما كان عليه منذ معرفتي الأولى بالمجموعة قبل حوالي ثلاثين سنة . وذكرت أنها قد انتقلت باسلوبها من منظور أحادي الجانب إلى الحوار المفتوح، كان هذا واضحا بشكل جزئي من الرّدود التي حصلت عليها من قبل الخمس والعشرون امرأة عندما سألت كل واحد ة عن رأيها في وضع المجموعة ، وعن القضية الأكثر صعوبة التي تمنّت لو تحلها المجموعة. دل الاختلاف في الأجوبة على أن لكل عضوة مفهوم خاص بها. ورغم أن هذا كان شهادة لاشتراكهن الفردي في اتخاذ قرارت المجموعة، فان تكرر ذات القضية التي حازت على اهتمامهن كان دليل على أن العولمة قد بدأت تسيطر على طبيعة مداخلاتهن. كمثال على ذلك عندما اعترضت على أولوية قضية " اللباس

الإسلامي " واجهت بعض الإمتعاض ، لكن انفتاحهن لانتقاد آرائهن واعتمادهن على بعض المصادر كان دليلا على فعاليتهن بشكل يوحي بالاتعاظ. كمثال حي، أروي ما ذكرته لي عضوة صغيرة في العشرينات صرّحت به بشكل نسبي أنها لم تستطع أن تفهم لماذا يفرض عليها أن تبرّر أسلوب حياتها إلى الآخرين، خاصة الأجانب .

رغم أني لا أعتبر ممارسة لباس معين شيئا أساسيا في التربية الإسلامية الموصلة لتحرير المرأة المسلمة ولا أعتقد أن الأمر أكثر أهمية من ذهاب الغربيات إلى الكنيسة أو المعبد لتحقيق تحررهن، فالحقيقة إن إدناء قيمة تعلم النساء المسلمات، حسب منظور البلاد الغربية، إلى مستوى السماح أو عدم السماح للمرأة أن تغطي رأسها في قاعة الدرس، سواء كان ذلك في فرنسا أو الولايات المتحدة أو تركيا، ووجود مثل هذه المهاترات في أحاديث النساء السوريات خلال عام 1995، يدل على تأثر هوية تلك النساء بما يدور خارج الوطن (ما شادو، 66: 1996). ومما يدعو إلى التهكم هو أن أغلب النّساء في حلقة الدراسة هذه لم تكن مدركة لمثل هذه الأحداث التي كانت في البلدان الغربية لكون معلوماتهن محدودة بما تقدمه وسائل الإعلام السّورية، ومع ذلك فقد بقيت قضية اللباس هي الوحيدة التي تركز عليها أغلبهن . ويبدو أن هذا كان بشكل رئيسي نتيجة لحادث سابق في سوريا حيث قامت فرقة سّياسية (كانت ساخطة على ازدياد مجموعات النّساء " المتدينة " التي تبنت الحجاب) قامت هذه الفرقة بسحب الأغطية عن رؤوس النساء في الشّوارع. وكان عذرهم هو أن هذه الممارسة كانت ضد المبادئ الثّورية للحزب الحاكم الرامية لتحريّر النساء. ولكن الحكومة القائمة أدانت مثل هذا الحدث، ومع ذلك ما توقفت المناقشات أبدا، كما لم تتوقف النساء عن ارتداء الحجاب .

ومع ذلك فأن التفسير القائم لدى المجموعة حول ارتداء اللباس المعتدل كان مختلفا عن التّفسيرات الأخرى التي سمعتها وقرأت عنها بين المجموعات المتدينة والعلمانية بين النّساء الأخريات، سواء في أمريكا الشمالية، أو انكلترا ، أو فرنسا، أو مصر. حيث أن النّساء السّوريات لم تناقش، ولم تكن مهتمّة ، بالوصمة الرّمزية و السّياسية للحجاب. على العكس، فان اهتمامهن كان بشكل رئيسي يدور حول كيفية فهم المبادئ الأساسية للقرآن بما يخص اللباس المحتشم سواء للذّكر أو الأنثى، وأن يستكشفن تفسيرات مختلفة بشكل يجعل كل عضوة تشعر بالراحة والقناعة بالحل الذي توصلت إليه .الذي أثار اهتمامي، كباحثة متخصّصة في تطوّير المناهج في الدّراسات الإسلامية والعربية، هو الكيفية التي تفسر تلك النّساء في المجموعة ما يدور من تركيز في المحور العالمي على لباس النّساء المسلمات (من قبل المسلمين وغير المسلمين) ، و كيف أثر هذا التركيز على تفسيرات تلك النساء للمصادر الأولية. حيث أن الظروف المحيطة بمناقشة النّصوص الدينية ، سواء منها المهتمة بقضايا اللباس أو أي قضية أخرى، توصل إلى نتائج خطيرة حول الفهم الذاتي للإسلام. سواء كانت قضية طبيعة عملية اتخاذ القرار أو مقدرة النساء لحماية مكانها الشّرعي في الجامع، فأنه من الأهمية أن ندرك بأن التحقق النفسي والهوية الذاتية هي مؤشرات للدّيمقراطية في هذه المجموعة.حيث أن قراءاتهن الحديثة للنّصوص الإسلامية تظهر الانحياز الذكوري في التّفسيرات السابّقة وتطبيقاتها . وكذلك فإن هذه القراءات تظهر انعدام أهمية بعض المفاهيم الغربية وأن طرقها في البحث لاتمت بصلة للمجتمع الإسلامي. على سبيل المثال، سأسرد الحالات التالية لأوضح كيف تتحقق المعاني الإسلامية بيما يتعلق بحياة المرأة الفردية والعائلية.

سرد لبعض الحالات والوقائع:

في شباط/ 1995, بدأت هذه المجموعة في الاجتماع بجامع تأسّس حديثا بعد أن اقنعوا مديره أن يفتح الجامع لمدة ساعتين قبل صلاة الجمعة كي يتسنى لهن القيام بحلقات الدراسة بشكل دوري .حصل مدير الجامع على موافقة مجلس الإدارة (كلهم رجال) لتخصيص مكان للمجموعة لتتابع حلقاتها الدراسية والمشاركة في صلاة الجمعة مع النّساء الأخريات اللواتي يتردّدن على الجامع، دون أن يزعجهن توارد الذكور للجامع . لم يكد يمض شهر على الحلقات

الدراسية الدورية حتى أعلن مدير الجامع في نهاية صلاة الجمعة أن النّساء لن يستطعن الحضور إلى الجامع بعد ذلك اليوم لأنه لم يعد هناك مكان كافي مخصص للنساء بسبب عدد الرّجال المتزايد خلال شهر رمضان. هذه الحادثة لم تكن الأولى من نوعها ولذلك لم تكن ذات شّأن لأغلب النّساء الحضور، حيث أنهن إعتدن على مثل هذا التّقلّب المفاجئ للمسؤولين عن الجوامع . أما بالنسبة لي، وحيث صادف وأني كنت ضمن الحضور ، فان الحادثة كانت إشارة لفتح جبهة جديدة لمواجهة الغبن لحقوق النساء، ليس فقط لأني كنت أبحث وأكافح ضد التفسيرات المشابهة بين المسلمين في أمريكا الشمالية، ولكن لأن هذا المدير ذاته كان قبل بضعة أسابيع فقط ،قد أعلن بكل فخر أنه خصص مكانا لحضور النّساء في جامعه.ومن الضروري التذكير هنا أنّ الرّوح الإسلامية للتجمع وللخطبة يوم الجمعة لا يهدفان إلى الصّلاة الجماعية فقط ،و لكن الهدف الرئيسي هو تجمّع كل جماعة محلية لمناقشة قضاياها. وهذا ما يدعو لوجود جامع في كل حي ، حتى في الأرياف.لكن في بعض المجتمعات المسلمة نتيجة لتطفّل القوى الثقافية والإيديولوجية الخارجة عن الإسلام بدأت تمنع النساء من التردد على الجوامع يوم الجمعة متذرعين بحجة الخوف من تعرّضهن إلى الأفكار الخارجية.رغم كون هذا التخوف لا أساس له.وفي الآونة الأخيرة ، أصبح تفسير عدم ذهاب النساء إلى الجامع "أنه ليس من الضروري أن يختلط الرّجال والنّساء ".وقد تحوّلت مثل هذه الممارسة مع مرور الزمن إلى قاعدة، والعديد من مدراء الجوامع والمنظمات الدينية المحافظين المعاصرين ، كما تقترح Keddie (1992:4) أصبحوا يرجعون مثل هذه الممارسات إلى القرآن أو كتب الحديث .والأسوأ من ذلك ،أن هذه القراءات والتفسيرات الآن أصبحت تُدّعي عدم إلزامية حضور النّساء يوم الجمعة، وتصنّف النساء سويّة مع الأطفال ومع العجزة عقليا بحيث تدعي أن النساء لسن مسؤولات عن هذا الواجب الدّيني (برزنجي، 1996).

وقد صادف أنه قبل هذه الحادثة ، حضر مدير هذا الجامعَ إحدى محاضراتي العامّة عن الحقوق الإنسانيةِ للمرأة المسلمة في المركز الثقافي الأمريكي في دمشق ،و كانت حوالي عشْرة نِساءٍ من مجموعة الآنسةِ هناء حاضرة أيضا. وقد كُنْتُ أشرح عندها أن الحق الإنساني الأولي للنساء المسلمات في الإسلام هو المعرفة العميقة للإسلام وأن هذه المعرفة قَدْ أنكرت بسبب عدم السماح لهن بالاشتراك في النشاطات الدّينيةِ،وأساسها حضور يوم الجمعةِ (برزنجي ، 1998). وقد حاول مدير الجامع أن يدحض مقولتي على أنه لا أساس فعَلي لها. وكان مثاله هو جامعه الذي تقوم الآنسة هناء ومجموعتها بعقد حلقاتها الدراسية فيه. ومن الجديرُ أنْ نلاحظَ هنا أنّ العديد من الزّعماءِ الدّينيين (الذكور عادة) كَانوا يُعارضونَ سراً الانفتاح المفاجئ في حلقات النقاش العامة لقضاياِ المرأةِ المسلمة . هؤلاء الزّعماء بدءوا يَنتقدونَ على المنابرِ استيراد الأفكارِ الغربيةِ خصوصاً تلك التي كانت تتم تحت اسم حقوق المرأة المسلمة الإنسانيةِ وتّحرير المرأةِ مِن قِبل النِّساءِ المتدربات في الغرب واللواتي كن يحاضرن في المركز الثّقافي الأمريكي و البريطاني. هذه المعارضةِ، ومن المغالطات السياسية أن هذه الإعتراضات كانت مزامنة في ذات الوقت الذي كانت فيه الحكومةِ تدَعمْ الاتحاد النِسائي السوريَ لعمل ورشات وأعمال تحضيرية أخرى للتمثيل في مؤتمر المرأةِ العالمي في أيلول/سبتمبر عام 1995 في بيجين.

إن مل يضفي أهمية لمثل هذه الإزدواجيةِ،والتحول في المقاييس لهذه المناقشات، وتخصيص أو عدم تخصيص دور للنِّساءِ في الرأي العام، هو أن مثل هذه الأمور لا تحدث في سوريا فقط. وباعتباري باحثةِ ولي دور داخلي، وخارجي بذات الوقت فإنني تمكنت من أنْ أتعقّبَ بشكل مُحدّد بعض هذه القضايا التي تَعْكسُ " برنامج مخفي " وراء هذه التحولات وثنائية المقاييس. وهذا ما سأشرحه في الجزء الثاني لحادثةِ الجامع وبقيةِ المحادثاتِ مع المجموعةِ، ومن خلال المفارقات في الرّدودِ على مثل هذه المعالجةِ.

في نهايةِ الصّلاةِ الجماعيةِ لتلك الجمعةِ نفسهِا في شباطِ 1995، فكرت بأنّه ينبغي أن أتدخّلُ، واقترحت نقابلَ إمام الجامعَ حالاً، وعَرْضت استعدادي لمساندة نِّساء المجموعة في حالَ اخترنْ اتخاذ موقف. بعد بعض التّرددِ، تَطوّعتَ الآنسة هناء، وعضوة أخرى في المجموعةِ، وذهبنا

ثلاثتنا للتحدّثَ إلى الإمام. بعد عشْرة دقائق من المجادلاتِ والحجج، أشارت العضوة من المجموعةِ إلى أن النِّساءِ يَصلّينَ في الحرم المكي فأتبعتها قائلة للإمام ِ: لديك فقط اختياران، إما أن تقوم بحل القضية مع مجلس إدارتكِ أو أننا سَنَصلّي الجمعة القادمة حول الجامع، على قارعة الطريق وسوف َنجْلبُ سجاداتنا الخاصة لحضور صلاة الجمعة الواجبة علينا كما ورد في القرآن والحديث، وعندما غادرنا الجامعَ، نَظرت الآنسة هناءكما لو أنها مأخوذة من مجريات هذه الأحداث .ولكن بعد يومين أخبرتني أن النِّساءَ سَيَكُنّ قادرات على حجز نصف المكان في الجامع لتعقد حلقة الدّراسة كالمعتاد. وعندما سَألتها كيفْ استطاعتْ أن تَصلَ لمثل هذا الحل، أخبرتني أنه سنحت لها الفرصة بالتحدث إلى الإمام على انفراد. . واستطعتُ أن أحْضرَ إحدى الحلقات قبل أن أغادر دمشق تلك السّنةِ، وكانت هناك طبعا ستارة فاصلة بين النساء والرجال .شَعرتُ بأن هذا الحل يُعطي صورة خاطئة حول مكانِة ودور المرأة في تربية المرأة الإسلاميةِ، وتحريرها. رغم أن مثل هذه الصورة ما زالتْ تَسُودُ بين العديد من مجموعات النِساءِ المتدينات ، فان معرفتي بحوادث أخرى لها علاقة بحلقة الدراسةِ مع الآنسة هناء تدل على نَتائِجَ مختلفة. وعندما أعدت النظر في الأحداثِ السابقة وحوادث أخرى مرتبطةِ بشكل مباشر و غير مباشر بها، أُدركتُ بأنّ الآنسة هناء لم تكن محتارة حقا مِن حادثة الجامع، بل كانت خبيرة بالظروف الاجتماعية والسّياسية وان ترددها الظّاهر لم يكن بسبب الضّعفُ عن الرّدَّ، ولا مسألةُ استسلام إلى القراراتِ الذّكوريةِ. وإنما ردة فعلها كَانتَ في الحقيقة نتيجة لاستراتيجيتها المعتمدة على "الانتظار ورؤية النتائج ". غفَدْ كانت تعَرف هذاْ الإمام، وزعماء دينين آخرين، وقد أدركتْ أن أفضلَ ًإستراتيجية ليست أن تصر وبشكل مفتوح في الحال. وقَدْ تأكّدَ تحليلي هذا مؤخرا بردها علي عندما عبرت عن عدم قناعتي بسلوك إمام جديدِ لنفس الجامع، الذي ركز في خطبة الجمعةِ في عام 1997 على أن النساء محرضات للإغراء. إذ عندما تساءلت كيف للمجموعة أن لا تجيب علىمثل هذه الآراءِ واتهمتهن بأنهن سلبيات ردت الآنسة هناء : "نحن نَعْرفُ بأن هذا الرّجل عادلُ، ولذلك يَجِبُ أنْ نَكُونَ صبورَات حتى عندما يظهر بحديثه كما لو أنه ضد النساء".

هدف النساء في هذه المجموعة في العملية الديمقراطية واشراك المرأة لتَأْخذَ مكانها ليس من الضروري أن يكون مرتبطا بشكل واضح في عمليةِ اتخاذ القرارات العامّةِ. بل إن الهدف، يَتضمّنُ مقدرتهن على مناقشة مشاكلهن وفهم الظروف المحيطة بكل قضية وأي قرار خاص، والعَمَل من أجلْ ضمان أنّ تسمع أصواتهن وتَحْفظُ أماكنهن ومكانتهن .ولو كانتُ نتيجةُ حادثةِ الجامع مختلفة،لكان هناك شك في أن مثل هذه المواقف تقُودُ إلى الديموقراطية .وقد كان ردَ النِّساءِ بأنة طالما هن قادرات على التعبير عن استراتيجيتهن وأحرار في أنْ يَتّبعنها أو أنْ لا يتبعنها ، وأن لهن دور في العملياتِ التي تؤَثّرَ على حياتهن الخاصة وتحقيق الفائدة للنِساء الأخريات، فإنهن مصرات على حقوقهن المدنية الإسلامية .

في عام 1997 خلال السّنة الثالثة من مشروعي، حَضرتُ معظم الحلقات الدراسية للآنسة هناء. وقد علقت الآنسة هناء في إحدى الاجتماعات على حادثة الجامع، قائلة: " أنها لربما لم تكن عِنْدَها الشّجاعةُ للذْهابَ إلى الإمام لو لم تحصل على تشجيع مني. لقد ذكرتني عبارتها بحادثة أخرى عن عالمِ مسلمِ بارز في الإسلامِ اقترحَ بأن تقوىَ المرأةِ المسلمةِ تَفْرضُ عليها أنّ لا تُجادلُ علناً، ولا تنضم إلى " الغربيات" في برنامج تحرير النِّساءِ. فعبارة الآنسة هناء هذه تَدْحضَ مفهوم هذا لتقوى المرأةِ المسلمةِ، مع أنها تَستعملُ أسلوب" اصبر وانتظر " والإقناع الخاصّ. من الضروري أنَ نفقه المعاني المتعدّدة للتّقوى في الإسلامِ حتى تكون لدينا القدرة على فهم موقف الآنسة هناء وقدرة مجموعتها على تعقب أعمالها (بر زنجي، **1998**).

كمثال، في حلقة الدّراسةِ هذه، بعد أن أنهت الآنسةِ هناء تَوضيحَ بعض المفاهيم في قضيةِ المسؤوليةِ الفرديةِ ومعنى التقوى في القرآن '، تَحدّيتُ المجموعة على أنْ تَأتيَ في الجلسة القادمة مستعدّة كي تُخبرَنا كلاعن خبرتها الفردية فيما يتعلق بقدرتهن على تطبيق ما تَعلّمن حول المفهوم.وقَدْ عُمِرتُ بقصص في الأسبوع التالي، ولكن أصابتني الدهشة،عندا قدمت لي امرأة

بالستين من العمر، اسمها فاطمة، في نهايةِ الجلسةِ قائمة عنً استنتاجاتها الخاصةِ للسّياقاتِ المختلفةِ للتقوى.قالتْ، " وَجدتُ أنه تطبيقي سَيَكُونُ أفضل إذا بدأت بتعلم كافة السّياقاتِ التي أتت بها هذه الكلمة في القرآن،ولذلك كتبت هذه القائمةِ."ثم سَلّمتني فاطمة قائمتها هذه بتواضعِ.ومنذ ذلك الحين وفي كل مرة أقارن النظرة الإسلامية مع القضية الإنسانية في الأبحاث التي أقوم بها فإنني أستعمل استنتاجاتها كمرجع. ومع أنها قائمة بسيطة عن حدوث كلمة التقوىِ، فإنها كانت نتيجة بحثها الخاص لتَجدَ معنى لفعالياتها الخاصةِ.

سواء دعونا ذلك العمل ديمقراطية أو عملا دينيا، فان عمل فاطمة لمَ يكن ردَا على فلسفةُ وُسياّسةُ التعليمات أو الحقائق الإسلامية، ولا ردا إلى أولئك المدافعينِ أو الذين يَقْمعون أيُ مناقشة لحقوقِ الإنسانيةِ للمرأة. إن الأهمية تكمن في أنّ بعض النِّساء، مثل فاطمة التي تبلغ الستين من العمر في دمشق، قَدْ اختارت بنفسها وأدركت هويتها الذاتية كمساهمة في تغيير التاريخِ. بالنسبة إلى فاطمة، هذا كَانَ جوهرَ المبادئ الدّيموقراطيةِ في الحياةِ الإسلاميةِ حيث قررت بنفسها كيف تتفهم القضيةِ.

ِ وكباحثة مشاركة في مثل هذه النشاطات، فإنني كَسبتُ صديقة وناصحة جديدَة. تبدو فاطمة وكأنها تُشاركنيَ بنظرتي إلى الهويةِ الذّاتيةِ، والأمر الأكثرَ أهمية، أنني قَدْ تَعلّمتُ منها أنهِ يُمكنُ أنْ يَحْدثَ تفكير ناقد فيما ، إذا اختار ت المرأة العمل على ذلك حتى لو لم تكن مدربة بشكل رسمي على ذلك. عندما تدرك المرأة ذاتها و دورها في المجموعةِ,فان اشتراكها في المجموعة في ذلك الوضع لربما يساعدها فيُ تغيير أصول تعليمِ التّربيةِ الإسلاميةِ.وبالتأكيد فان فاطمة كَانتْ عضوة فيَ المجموعةِ لسنين عديدة، وهي قادرةَ أن يكون لها مساهمة فردية فعّالة عندما أتُمّمتْ إدراكَ ذاتهاَ .لهويتها الذاتية في مثل هذه المساهمةِ أيضا تطبيق تربويُ آخرُ لديناميكية المشاركة الإسلامية والديموقراطية في الحركاتِ النِّسائية المحلية التي تعمل ضمن الإطار الإسلامي. هذه المساهمةِ ستغير في فهم حركات المجموعات النسائية المحلية الأخرى من أجل استقلالية المرأة الثقافية والأخلاقية، و السياسية .

النتيجة:

إذا حاولناُ أنْ نَفْهمَ الأحداث السابقةِ ضمن سياق هنري هاريس جيسوب (1874) الذي سجل ملاحظاته تحت عنوان " سبع عشْرة سنة للمبشّرِ الأمريكي في سوريا " (سوريا الكبرى حينها)، يُمكنُنا البْدء برؤية الدور الذي يأخذه التّشويشَ الناتج عن التدخل الخارجي في تحوير السياسة الداخلية المتعلقة بالمرأة ومكانتها. فقضايا الديموقراطية، خصوصاً المتعلقة بحركاتِ مجموعات النِساءِ المحلية العريقة، هي أقدمُ من هذه التّدخّلاتِ. وأفضل مثال لذلك هو"قانون الأحوال الشّخصية "الحالي والمفاهيم الناتجة عنه، حيث أنه وُلد نتيجة لمثل هذه التّدخّلاتِ المترافقة مع الثنائية في السياسة الدّاخلية والتي لها علاقة باشراك أو عدم إشراك النِّساءِ في عمليةِ اتخاذ القرارِ.

إن إدخال المفاهيم الأوروبية لتربيةِ النِّساءِ للتحرر من الأميّةِ، والجهل، والممارسات الصحية الضئيلة استعملت من قبل جيسوب كحجة لإدخال التبشير بحجة " الدّيمقراطية "، إلى أرضِ "العربِ". كما كَتبَ جيسوب إن النهوض الملحوظ الرّائع للنِّساءِ المسيحياتِ في الأراضي المسيحية و اهتمامهن الجديدِ في أمور النِّساءِ في البلاد الوثنيةِ و المحمدية تعتبر واحدة من الأحداثُ العظيمةُ للقرنِ الحاضرِ "(Vi :1874). كل ما يحتاج أحدنا هو أنْ يسْألَ اليوم: لماذا لم تزل النِّساءِ الأمريكياتِ والسّوريات تُكافحَ لأجل قضايا الديموقراطية على الرغم من الادعاء أن النِساء السوريات قد "تُحرّرت " بمساعدةِ " أخواتهن الأمريكيات ؟ إذا نَظرنا عن قرب إلى كفاحِ النِّساءِ الأمريكياتِ والسّورياتِ المستمر، فإننا سوف نَعرفُ النَقص في فهمِ المرأة السوريةِ و العربية والمسلمة ونساء الشرق عامة . وسوف نُدركُ أيضا أنه حتى نضال النِساءِ الأمريكيات والأوربياتِ لمْ يتم فهمه من قبل أولئك الذين يدعون أن لهم دورِ "المنقذين " بينما هؤلاء

"المنقذين " ما زالوا ينظرون إلى دور المرأة الأولوي ضمن مجال الخدمة المنزلية وعلى أنها تابعةٍ أخلاقيا للرجل.
وبشكل مشابه، كَتبَ **Ors C.Houghton** : ". . . أنا أثق أنُ الصّفحاتَ التّالية سَتَكُونُ لها قيمةٍ خاصّةٍ بالنسبة للسّيداتِ المسيحياتِ من أمريكا اللواتي عواطفها وجهودها إلى العمل على النهوض بالنِّساءِ الشّرقياتِ من خلال قوةِ التّربيةِ المسيحيةِ " (Houghton 1877: 5)، إنني أتساءلُ لماذا أغلبية نساء الشّرق اللواتي ثقفن من قبل المبشرين ما زلنّ أمياتُ، خصوصاً بعد فرض التبشير الغربي ومفهوم المدارس الإجبارية قبل مئتي سنةٍ الماضية (برزنجي 1997) .وبالإضافة إلى ذلك لماذا قام عدد لا بأس به من النِّساءِ الأمريكياتِ بهْجرَ المسيحية والدّين بشكل عام في القرن التاسع عشر من أجل الوصول إلى التّحرر، بينما يقال للنِساءَ الشرقياتِ أنّهن يُمكنهنْ أن يتقدموا فقط من خلال التّربيةِ المسيحيةِ؟أخيراً، لماذا بدأت بعض النِساء المسلمات المُعاصرات اللواتي تثقفن بالغرب أو على الطريقة الغربية تهْجرُ الإسلام عندما أصر رجال الدين المسلمين أن الإسلامِ هو دين الحرية.؟
وعندما أقرأ فيُ بعض مصادرِ المؤلفين المسلمين الذكور من القرنِ التاسع عشر والعشرون، التي تُؤكدُ أن النِساءَ المسلماتِ تحْملنَ مصباح العفةِ والمبادئ الأخلاقيةِ من أجل الحْفاظ على العائلة والمجتمع المسلم والنسيج الاجتماعي العالمِي ، أصبحت مقتنعة بأنّ نفس المشكلةُ تشكل أساس قضايا النِّساءِ والديمقراطية في كل مكان.هذه القضايا تَأخذُ أشكالَ وأنماط مختلفة، لكن الفرضية أو الإدراك الأساسي اللذين أحاطا دور النِساءَ ومكانَ النِساءِ في العمليةِ الدّيموقراطيةِ هو نفسه (أحمد، 1992؛ Salleh ، 1997).
إن المشكلة هي أن النِّساء لَمْ تدرك ذاتها ، وهن لمْ يدركن أنفسهن كمواطنات لها ذات أخلاقية وفكرية مستقلة. فالإستراتيجيات البطيئة التي تعتمد " انتظر وشاهدّ" والمجادلات الشخصية التي تعتمد عليها مجموعة الآنسة هناء قد تكون جزء من المشكلةِ.
وتتسأل ميري واين ديفز : " هل هذا الإدراكِ المتزايدِ للاعتماد المشترك أو المتبادل توازيه زيادةٍ في الفهم المتبادل ؟ (IX:1988) كما أن الرجال المسلمون أنفسهم الآن لا يُمكنُ أنْ يَكُونوا مستقلينَ اقتصاديا وبنفس الوقت لا يدخلوا في عملية الحكم وصنع القرار، فان أفضل استراتيجية، كما اقترحت إحدى المحاميات السوريات ، أنْ تُجهّزَ النِساء المسلمات ببعض مهاراتِ التغلب على المصاعب. إنّ مهاراتَ حَلِّ المشاكل هي مجرد أدواتُ اجتماعية غالباً ما تستعمل لكي تَتفاوضَ المرأة أو الفرد مع البيئة العائلية والجماعيةِ، ولكن تلك النِّساءِ لَنْ يَصْبحنَ ذوات سلطة كافية لأنْ يَتفاوضنَ ويتفاعلن مع السّياساتِ العالميةِ والدّاخليةِ،كما تُشيرُ النظريةِ الاجتماعية لبياجة (DeVries ، 1997): إن المرأة التي هيَ غيرمستقلة فكريا وخلقيا (أي ليست قادرة على أنْ تتفهم باستقلال وتختار قيمة معينة للواقع الحقيقي) لا يُمكنُ لها أنْ تَتحمّلَ المسؤولية بإدراك واعي ، ومن هنا لا يُمكنُ لها أنْ تَتعاونَ بالكامل، ولا يُمكنُ أنْ تَكُونَ بنّاءَة ثقافيا. وبعبارة أخرى، **فإن** الشخص الذي ليس لديه استقلال ذاتي لن تكون له القدرة أنْ يُصبحَ عنصرا مغيراِ، و سَيَبْقى دائما خاضعا للآخرين الذين يقومون بالتغيير. وسواء كان ذلك نتيجة النية الحسنة، أو التدخل الخارجي، أو نتيجة قانون التكافؤ الاجتماعي ، أو نتيجة إقناع خاصّ، طالما أن المرأة لاينظر إليها، أو لا تُدرك بنفسهاُ على أنها كائن مستقل بذاتها، فإنها لَنْ تُساهمَ في التّغييرِ الشامل والجوهري والدائم.
إذن العمل الذي يتم ضمن الحلقات الدراسيةِ الذي حللته في هذا الفصل، له أهمية كبيرةٍ حيث أنه يوضح إمكانية النساء لإدراكِ ذّاتها حتى في أشد الظروف المقّيدة والحالكة .